ترجمة قصيدة (تأمّلات في الصّباح و المساء حول عظمة الخالق) لميخائيل ياسيليفيتش لومونوسوف (1711-1765)

Le matin et Le Soir : Méditation Sur La Grandeur De Dieu Michel Yasilievitch Lomonosov (1711-1765)

د. بغداد عبد الرحمن ، الملحقة الجامعية بمغنية - جامعة تلمسان ، الجزائر
abderrahmane-beghdad@hotmail.com

ملخّـــص

تسعى هذه الورقة إلي التّعريف بواحدٍ من أهمَ أعلام الأدب الرّوسي الحديث و هو : ميخائيل فاسيلييفتش لومونوسوف Mikhail Vasilyevitch Lomonosov (1711-1765) من خلال الوقوف على واحدةٍ من قصائده الشّعرية التي صوّرت حقيقة تأثّر الشّاعر الرّوسي بالقيَم العقائديَة ولاسيما منها تسليم نفسه للخالق و الخضوع له ، و تسليم العقل والقلب لعظمته وكَماله .

وقد جاء هذا التّأثر بالرّوح الدّينية بعد أنْ بدأت تنهض وتتحرّر عقول الأدباء وأذهان المفكرين الأوربيين من قيود الكنيسة التي كبّلتهم بها منذ عهد العصور المظلمة ، فكانت تبعات ذلك التّأثر واضحة في جوانب من حياة الشاعر الرّوسي وفي الكثير من أشعاره الغنائية خاصّة .

Abstract

This paper seeks to introduce one of the most important Russian modern literature and media is: Mikhail Lomonosov Mikhail Vasiljevic Vasilyevitch Lomonosov (1711-1765) by standing on one of his poems poetry really depicted the Russian poet influenced by the ideological values and especially their surrender to the creator and the delivery of the mind and heart of his greatness and perfection.

And the influence of the religious spirit began play and free the minds of authors and the minds of European thinkers of the Church against the bondages of restrictions since the dark ages, it was the consequences of vulnerability are clear in aspects of life of Russian poet and his poems in many musical special.

1. مقدّمـــة :

يَعتبر الكثير من النقاد و الدراسين أن الشاعرَ الروسي ميخائيل فاسيلييفتش لومونوسوف Mikhail Vasilyevitch Lomonosov هو الأبُ الروحي للأدب الروسي الحديث وذلك من خلال دعوته إلى إحياء الشعر الجديـــد والانفكاك من التقليد للماضي ، بإضفاء روح الجدة على الشعر الروسي الحديث بعد تخليصه من رواسب وقيود قديمة . و بانتسابه إلى الفضاء الرومانسي أحس لومونوسوف بأن الشاعر الروسي بحاجة إلى حرية في التعبير عن تجاربه الشخصية ومواقفه الذاتية . لذا جاء اهتمامه بالطبيعة في مقدمة القضايا الجوهرية التي عالجها بشكل عام . وإنما جاء هذا الاهتمام في قصائد لومونوسوف نتيجة انبهاره و تأثره بروح الخطاب القرآني المصور لعظمة الله في خلقه. ولقد لامسنا هذا التأثير الروحي- الإيماني في شعره عبر قصائد كثيرة نذكر منها نشيده الديني أو قصيدته :

" تأمّلات في الصّبـــاح والمساء حول عظمة الخالق"
Utrennee razmyšlenie o božiem veličestve

وهي تؤكد على حقيقة دينية جلية مفادها تأثر الشاعر الروسيٍ غير المباشر بالقيم الإسلامية في تعظيم الخالق تعالى و الانقياد له ، وذلك من خلال حديثه عن القدرة الإلهية في تصريـــــف هذا الكون عبر الطبيعة وأشكالها . و إذا نحن قرأنا النصيْن الشعريْن ، شعرنا و كأن لومونوسوف يريد أن يقول : "قلبي عامر بالحب إلى الخالق ، فهو مولانا الذي يحب الخلق أجمعين . و هو مبدع الشمس و القمر و النجوم و الأرض و البحار" . لكننا نراه من جانب آخر يقول محذرا الإنسان : "يا لحماقته و هو يصر على عدم الاعتراف بقدرته و التسليم بها" . فواضح مدى انعكاس تلك القيم الإيمانية على الجانب الذاتي للشاعر و هو يجسد ذلك الوجود الموضوعي لعظمة الخالق سبحانه في أذهان الناس ، و قد أراد عبر بصمته الفنية الخاصة و أسلوبه الشعري المميز أن يساهم هو الآخر و كغيره من الأدباء الغربيين أمثال بوشكين الروسي ، و لامارتين الفرنسي ، و جوته الألماني ، في التعبير عن تلك المشاعر المرهفة المستسلمة لقدرة الله الخالق القادر على عالمه و خلقه ، هذا ما حاولنا أن يقف عنده القارئ العربي المحترم و هو يطالع هذه الترجمة للقصيدتين .

2. السّيرة الذّاتية الموجزة :

الشاعر الروسي لومونوسوف Lomonosov واحد من المجددين الفعليين للأدب الروسي الحديث بأفكاره الرائدة في شتى صنوف المعرفة . ففي ما يتصل باللغة الروسية ، وضع مؤلفات عديدة نذكر منها كتابه : "قواعد الروسية" في عام 1755 ، ثم تطرق إلى الصيغ السلافية و الروسية العامية التي حددت قوالب اللغة الروسية الأدبية و خصائصها ، كما يعتبر من الأوائل الذين ساهموا في التأليـــف المتخصص في علم البلاغة باللغة الروسية وذلك عبر كتابه : " دليل موجز في البلاغة " في عام 1748 .

ولد لومونوسوف عام 1765في مدينة دنيسوفكيا Denisovkaïa قرب كولموغوري Kolmogory شمال غربي روسيا ، من أسرة متوسطة الحال ، حيث عمل أبوه في الحكومة الروسية ثم صياد سمك . و نشأ الفتى على حب التقاليد الشعبية و ما اتصل بها من حرف كالبحارة و التجارة ، ثم تعلم القراءة و الكتابة و أدمن على المطالعة حيث قرأ – و هو في سن مبكرة – النحو و الحساب و الشعر و الموسيقى. ثم تتعدد أسفاره بعد ذلك ، حيث بعد انضمامه إلى الأكاديمية السلافية – اللاتينية بروسيا التي تمكن فيها من استيعاب المعالم الثقافية في روسيا و نظم أولى قصائده الغنائية و الملحمية ، يزور كييف Kiev و يطلع على اللغة و الثقافة الأكرانية ، ثم يحط رحاله بمدينة بطرسبورغ Saint-Pétersbourg ليكمل بها دراسته في أكاديمية العلوم . لكن لا يلبث أن يذهب إلى جامعة ماربورغ

Marbourg بمدينة سكسونيا بألمانيا لدراسة علم المعادن ، التي أكتسبته معارف واسعة في الفيزياء والكيمياء وعلم المعادن والفلسفة، وخبرة في صناعة الزجاج ، بالإضافة إلى تعلمه للغات الألمانية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية وما تبعها من آداب . و رغم هذا التألق العلمي ، ظل لومونوسوف في نزاع مستمر مع الحكام أوقعه في مشاكل غير محمودة العواقب ، فاعتقل و مكث في السجن عدة أشهر .[1]

أما فيما يتعلق بإبداعات لومونوسوف الشعرية، فقد كانت البداية عبر فن المقاطع التقليدي (الشعر العمودي) ، حيث أسهمت معرفته للشعر الغنائي القديم و اطلاعه على فنون الشعر الأوروبي من نظم قصائد شعرية متنوعة ، ثم يظهر تألقه الشعري بعد اعتباره : " أول شاعر للمدرسة الرومانسية ، ومثله مثل بوشكين تأثر بالشاعـــر بيرون Byron ، ومنح للمشرقيات مكانة في أعمالـــه ، ورغم وفاته المبكرة إلا أن آثـــاره تبقى جد معروفة . "[2] . له مجموعة شعرية تحمل عنوان : "حديـــث مع أناكريون" والتي عمل فيها على إبراز أهمية المواطنة والوطنية ، و مكانة روسيا في السياسة الخارجية . غير أن مع كل هذا التقدير العلمي و المكانة الأدبية التي أحيط بها ظل لومونوسوف يعيش حياة متواضعة رغم المضايقات التي عانى منها و أتعبته جسدياً و انتهت بوفاته عام 1711 .

3. التّرجمة النّصية / النّسخة العربية :

1. قصيدة "الصباح ؛ تأمّل في عظمة الخالـــق" [3]
لميخائيل ياسيليفيتش لومونوسوف (1711-1765)

الشّمس تشـــرق وضياؤها
بغزارةٍ ينتشـــر على الأرض.
والله يثني على رونقـــــها !
مبهورٌ بهـــــذا السّراب ،
مستسلم أمام هذه المعجزة ،
أحسبُ أنّـــــــه خالقها .

^^^

و لمّا شعـــر الإنسان بسلطته
وهو يرتفـــــــــع بذاته
إلى حد ذاك الصرح ، صُنْعُ الله ،
الذي رافقه و رحلتـــه السامية.
فلن يرى في هـــــذه الهاوية ،
سوى سعـــة ساربة خالدة .

^^^

هنا ، علامة الأمان ، علامة الاطمئنان
مقبـــل على فيض الأعمـــــار
وحي متســـرب في الإعصـــار :

عاجز على صدّ نـــوره الجامح
كل شيء هالك ، كلّ شيء فائت :
يسْرٌ في النّهايـــــــة متدفّق .

^^^

لكن هـــذا الفيض النّوراني
من وحي ، من هباء مستضاء
ما هـــــو إلاّ إلهام بريقك
أنت مَنْ شكل هذا الوميض .
يا ألله العظيـــم ! ما أبرقته
إلاّ لإرشادنـــــــا لنورك .

^^^

في عمـــــق الظلام تجاوز ت
الغابـــــــــات والمروج ،
والجبـــــال والبحـــــار ،
وبكلمة منـــــــك خلقتها ،
وأمـــــــرتَ المخلـــــوق
أنْ يعلم أنَّ لك ملك السّموات

^^^

سعيد اليـــــــوم ، نجم الحيـــــاة
ينيـــــــر الفضـــــــــاء
بجسمه الذي هـــــو ليس بصاحبـــــه
لكن أنت يا ألله العظيم ، بصيرتك النافذة
في روح عبـــــادك أجمعيـــــن ،
تبـــــثّ السعادة المطلقـــــة .

^^^

إله النّـــــــــــور والحكمة ،
عَلِمْـــــــتَ أن فيَّ ضعفـــــا ،
وفي عمـــــــــــق الظـــلام !
علِّمْـــــــني ما لا أعلـــــم .
لأسبحـــــــك و أرضيـــــك .
يا أيّهـــــا الحَكَمُ الواســـــع !.

2. قصيدة " المســـــاء : تأمل في عظمة الخالق " [4]:
لميخائيل ياسيليفيتش لومونوسوف (1765-1711)

قِبَلاً الظـــــلّ على الحقول
يمتد و يغـــــطي الجبال ؛
إننا بالفعل سعــداء اليوم .
في حسن ألف و ألف نجمة
متأنقة في حجبـــــــــه ،
الليل مهيمـــــن في مقامه .

^^^

كذا كحبـــــــة رمل محقورة ،
كذا كوميـــــض سريع التلف .
كقشة تبن ملقـــــــاة في النار،
غارقة في هذه الفجـــوة الهائلة
عبثا أتأمل ، و بدون جدوى أفكر،
إنـــــــي أضيـــــع في الأزل .

^^^

أنظـــــروا ، يقول الحكمـــــــاء .
كل هذه العــوالم ، و كل هذه الدواليب .
هذه الشموس ، هذه الشعوب المتفرقة ؛
وبدون تعداد ، بدون نهاية ، بدون تاريخ .
إنهم يسيرون من أجـــــل إنشاد مجد
الذي خلق هـــــذا الكـــــــــون

^^^

و لكن ما شأن تلون هذا القطب
بأشعة الشّفق المشـــــــرقة ،
أ عَجَزَ الشرق عن الاستفاقة ؟
أ هو ينطفـــأ أم ماذا يحدث ؟
أ هـذا المحيط الجليدي الملتهب
هو مالك عـــــرش الضياء ؟

^^^

أنتم ، أصحاب العيون المشرقة و الثابتة ،
أنتم ، الذين يقـــــودكم ذاك الشعاع ،
من أجل قراءة في أعمـــاق القبة الزرقاء :
أنتم الذين لا تشكـــــــــون في أمر ،
ومن بين النجوم كنتــم تتبعون الطريق ،
قولوا لمـــــاذا ، قولوا كيـــــف ؟

^^^

مِنْ أين نشأ ذاك الأفـــــــق الملتهب
مَنْ ذا الذي يخطف في الليلة أرواحنا ؟
مِنْ دون غمامـــــــة ، أهو البرق ؟
أيها الحكيم الخبير ، إبْحــثْ ، أدْرُسْ ؛
أخبرنا لماذا هـــــذا الحريـــــق
بخـــار جليدي في عزّ الشّتـــاء ؟

^^^

أخبرنا كيـــــف حدث هذا
شعاع يكسّـــــــــر الجوّ .
كحريق منبعــث من البركان ،
كأن القـــــــارة تتقيأ ،
لِمَ يضطرب البحر ، برغوته ،
ولِمَ هذا الهـــدوء للمحيط ؟

^^^

لكن علمـــــــــك بدأ يتقلّـــص ؛
عندما تتجـــــاوز الحـــدّ الأقصى
مَنْ مِنَ السموات تدافع هنا : عن التعاظم .
بالقـــــــرب منك ؛ كل شيء يتداخل ،
لكـــــن بدلاً من محاولة الإجابـــــة .
ارْكَـــــــعْ بين بديْ خالقـــــك .

4. التّرجمة النّصية / النّسخة الأصلية باللّغة الفرنسية :

1- Le matin : MÉDITATION SUR LA GRANDEUR DE DIEU :
Michel Yasilievitch Lomonosov (1711-1765)

Le soleil brille et sa lumière
En flots s'épandant sur la terre.
De Dieu raconte la splendeur !
Ébloui par un tel mirage ،
À genoux devant son ouvrage،
Il me semble en être l'auteur.

^^^

Mais quand l'homme aurait la puissance
De s'élever par son essence
Jusqu'à cet astre، oeuvre de Dieu
Succombant sous son vol sublime،
Il ne verrait dans cet abîme،
Rouler qu'un océan de feu.

^^^

Là ، point de rive، point de plages
Embrasant le torrent des ages
Le feu s'échappe en tourbillons:
Inextinguible est l'incendie
Tout y meurt، tout s'y liquéfie:
La pluie y bout à gros bouillons.

^^^

Mais cette masse de lumière.
De feu، de brûlante poussière
N'est qu'un éclair auprès de toi
Par toi، cette lampe formée.
Grand Dieu ! tu ne l'as allumée
Que pour nous indiquer ta loi.

^^^

Du sein de la nuit sont sorties
Et les forêts et les prairies،
Et les montagnes et les mers
D'un mot tu créas la nature،
Tu voulus que la créature
Te nommât roi de l'univers

^^^

L'astre du jour، l'astre de vie
Eclaire la superficie
De corps dont il n'est point l'auteur
Mais toi، grand Dieu، ton oeil pénètre
Jusque dans l'âme de tout être،
Pour y répandre le bonheur.

^^^

Dieu de lumière et de sagesse،
Daigne protéger ma faiblesse،
Au sein de mon obscurité !
Enseigne-moi ce qu'il faut faire،
Pour te louer et pour te plaire،
Arbitre de l'immensité !.

2 - Le soir : MÉDITATION SUR LA GRANDEUR DE DIEU :
Michel Yasilievitch Lomonosov (1711-1765)

Déjà l'ombre sur les campagnes.
S'étend، et couvre les montagnes ;
Déjà nous est ravi le jour.
Belle de mille et de mille étoiles.
Resplendissante dans، ses voiles،
La nuit règne dans son séjour.

^^^

Ainsi qu'un pauvre، grain de sable،
Ainsi qu'un éclair périssable،
Qu'un brin de paille au feu jeté،
Englouti dans ce gouffre immense

En vain j'admire، en vain je pense،
Je me perds dans l'éternité.

^^^

Regardez، nous disent les sages،
Tous ces mondes، tous ces rouages،
Ces soleils، ces peuples divers ;
Sans nombre، sans fin، sans histoire،
Ils roulent pour chanter la gloire
De Celui qui fit l'univers.

^^^

Mais quoi le pôle se colore
Des rayons brillants de l'aurore،
L'Orient est donc sans réveil ?
Est-ce qu'il meurt ou qu'il se passe ?
Un brûlant océan de glace
Est donc le trône du soleil ?

^^^

Vous، au regard vif et rapide،
Vous، que le moindre rayon guide،
Pour lire au fond du firmament :
Vous qui sur rien n'avez de doute،
Qui des astres suivez la route،
Dites pourquoi، dites comment ?

^^^

D'où naît cet horizon de flamme
Qui dans la nuit surprend notre âme ?
Sans nuages pourquoi l'éclair ?
Profond savant، cherche، étudie ;
Dis-nous pourquoi cet incendie.
Vapeur glacée en plein hiver ?

^^^

Dis-nous comment il se peut faire
Qu'un rayon brise l'atmosphère.
Comme le feu sort du volcan،
Comme il vomit le bitume،
Comment la mer bondit، écume،
Et le calme de l'Océan ?

^^^

Mais déjà ton savoir hésite ;
Quand tu franchirais la limite
Qui des cieux défend là: hauteur،
Près de toi ; tout peut te confondre :
Au lieu de chercher à répondre،
Tombe aux pieds de ton Créateur.

إحـــالات التّرجمة :

(1) Profils et types de la littérature russe, Combes Ernest. Paris – Librairie Fischbacher – 1896 - Page 150 .
(2) La Littérature russe, notices et extraits des principaux auteurs depuis les origines jusqu'à nos jours par Louis Leger - Ed. Armand Colin - 1892 -Page 386.
(3) Ibid. - Page. 88 – 86 .
(4) Ibid. - Page. 88 – 90 .

قائمة المراجـع :

- La Littérature russe, notices et extraits des principaux auteurs depuis les origines jusqu'à nos jours par Louis Leger - Ed. Armand Colin et Cle - 1892 .
- Profils et types de la littérature russe, Combes Ernest. Paris – Librairie Fischbacher - 1896.